إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله بعثه الله تعالى بالهدى ودين الحق فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وتركها على محجة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل، وأن نقدم لأنفسنا أعمالا تبيض وجوهنا يوم نلقى الله:﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ يقول المولى سبحانه وتعالى:﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ أمتكم أمة مجيدة عظيمة كريمة اختارها الله؛ لتكون واسطة العقد في هذا التاريخ، فهي الشاهدة على الناس والرسول عليها شهيد، إنها أمة تمرض لكنها تشفى، و تَغْفُو أحيانًا لكنها لا تنام، وتُغْلَب لكنها لا تُسْحَق، أخرج الله منها منائر للتوحيد وهداة للبشر، ومشاعل للحضارة الحقَّة.

فمع عَلَم من أعلام هذه الأمة نقف وقفة عظة وتذكر وتدبر، عَلَم يجب على الأمة أن تجعله وأمثاله قدوة من القدوات يوم كادت تغيب القدوات، ليكون حديث شيوخها في المنتديات، وقصصًا لأطفالها الذين لطالما أُشغلوا بالقَصص الهابط والرسوم المتحركات، وحديثًا لشبابها الذين طالما شغلوا بالحديث عن اللاعبين والفنانات، وملئت أسماعهم وأبصارهم بالأفلام والمسلسلات.

إنه من العادلين إن ذكر العدل، إنه الخائف من الله إن ذكر الخائفون، إنه من حيزت له الدنيا بين يديه فتولى الخلافة ، فخاف الله وما تكبر وما تجبر وما ظلم، خشي الله فعدل، خشي الله فأمن، خشي الله فرضي.

إنه -أيها الإخوة المؤمنون- [عمر بن عبد العزيز]- رحمه الله- وما أدراكم ما عمر؟! رجل لا كالرجال وسيرة لا كالسير، وعذرًا لن نَفِيَه حقه في هذه العجالة، لكن حسبكم وحسبي أن

نقف عند بعض مواقفه، لنتذكر، وننظر، ونعتبر، ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ فحي هلا بكم عباد الله إلى عمر وطرف من سيرته:

* هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم . وأمه : هي ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.

* لقد جمع القرآن وهو صغير، تحدث عن نفسه وطفولته فقال : " لقد رأيتني بالمدينة غلاماً مع الغلمان ثم تاقت نفسي للعلم، فأصبت منه حاجتي " .. ورغب إلى والده أن يغادر مصر إلى المدينة ليَدْرُس بها ويتفقه، فأرسله إليها وعهد به إلى واحد من كبار معلمي المدينة وفقهائها وصالحيها وهو: صالح بن كيسان رحمه الله.

* أمر أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك بالبيعة لاسم أدرجه في كتاب مختوم ولم يكن لأحد علم بما في الكتاب إلا رجاء بن حيوة أحد العلماء المقربين إليه، فبايعوا على من عهد إليه في الكتاب ، رجلاً رجلاً ، قال رجاء: فلما خرجوا أتاني هشام في موكبه فقال: قد علمت موقفك منّا، وأنا أتخوف أن يكون أمير المؤمنين أزالها عني، فأعلمني ما دام في الأمر نفس، قلت :سبحان الله يستكتمني أمير المؤمنين وأطلعك، لا يكون ذاك أبداً، فأبيت عليه فانصرف، فبينا أنا أسير إذ سمعت جلبة خلفي، فإذا عمر بن عبد العزيز فقال: رجاء، قد وقع في نفسي أمر كبير من هذا الرجل، أتخوف أن يكون جعلها إليّ ولست أقوم بهذا الشأن، فأعلمني ما دام في الأمر نفس لعلي أتخلص، قلت: سبحان الله، يستكتمني أمراً أطلعك عليه.!!

* يذهب رجاء ذات يوم ليعود الخليفة، فيجده في اللحظات الأخيرة من حياته، فيجلس إلى جواره حتى تفيض روحه فيسجيه.. وخرج ليجمع أهل بيت أمير المؤمنين فاجتمعوا في مسجد دابق قال لهم : إن الخليفة قد مات، وقرأ عليهم الكتاب..

ولم يكد يفيق عمر من غمرة المفاجأة، حتى راح يرتجف كعصفور غطته الثلوج، وصعق عمر حتى ما يستطيع القيام، وقال: والله ما سألتها الله في سرٍّ ولا علن، واستقبل رجاء بن حيوه يقول له في عتاب: ألم أناشدك الله يا رجاء ؟. وكان ذلك سنة 99هـ.

ثم سار إلى الخليفة المسجى، فصلى عليه، وشيعوه إلى مثواه، وعاد يعزي أهل بيته فيه، وفي الغداة ... دخل أمير المؤمنين الجديد المسجد فإذا هو غاص بحشود هائلة من الوافدين، فرأى أنها فرصة للتخلص من هذا المنصب الخطير قبل أن يتشبث بكاهله ... وصعد المنبر وخطب الناس:" أما بعد: فقد ابتليت بهذا الأمر على غير رأي مني فيه، وعلى غير مشورة من المسلمين وإني أخلع بيعة من بايعني، فاختاروا لأنفسكم ". فضجوا وصاحوا من كل طرف:" لا نريد غيرك ". ثم ألقى بعد ذلك خطبته قائلا : ((أُوصيكم بتقوى الله؛ فإن تقوى الله خَلَفٌ من كل شيء، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، ثم رفع صوته : أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم. ونزل عن المنبر))

تولى الخلافة فكان مجددًا ..كانت خلافته ثلاثين شهرًا لكنها، خير من ثلاثين قرنًا خلت من هدي النبوة، لم يضيعها في كسب دنيوي ولا شهوة عاجلة، لكنه جعلها لله رب العالمين فبارك الله في سنتين ونيف.

* ثم إنه خرج ليرى موكباً فخماً من الجياد المطهمة يتوسطها فرس زينت كالعروس ليمتطي الخليفة ظهرها البَذِخ ، فأمر بها إلى بيت مال المسلمين ، ثم لما وصل إلى السرادق فإذا هو فتنة ولا كإيوان كسرى فأمر بضمه لبيت المال ، ودعا بحصير ففرشه على الأرض ثم جلس فوقه ، ثم جيء بالأردية المزركشة والطيلسانات الفاخرة التي هي ثياب الخليفة ، فأمر بها إلى بيت المال ، ثم تعرض عليه الجواري ليختار منهن وصيفات القصر ، فيسأل كل واحدة: عن الأهل والبلد، فيردها إلى أرضها وذويها.

عاد لبيته ماشيا معلنًا أن من تواضع لله رفعه، ترك قصر الخلافة ونزل غرفته المتواضعة وجلس حزينًا يئن تحت وطأة المسئولية.

* إن العصر الذي عاش فيه عمر بن عبد العزيز رحمه الله قبيل خلافته كان كما يصفه أحد الكتاب:" زمن قسوة من الأمراء "، كيف لا والحجاج بالعراق، ومحمد بن يوسف باليمن ، وغيرهما بالحجاز وبمصر وبالمغرب، حتى قال عمر:" امتلأت الأرض والله جوراً".

وكذلك فيه من الفساد أن راح كل قادر على النهب ينتهب ما تصل إليه يداه، وغابت الأخلاق فشاع الترف والانحلال، ووراء الفساد سار الخراب ، فأخذت الأزمات المالية بخناق الدولة ومحق إنتاجها، وكان فيه تزييف لقيم الدين حتى إنه كان يلعن على المنابر بطل الإسلام العظيم ورابع الخلفاء الراشدين وابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وساعد في هذا التزييف شعراء العصر.

* بدأ عمر بن عبد العزيز رحمه الله بتغيير هذا الواقع إلى الصورة المثلى ، فلما ولي بدأ بنفسه وأهل بيته: حيث كان عمر رحمه الله ، يعيش في أسرة الملك والحكم، حيث النعيم الدنيوي، وزخرف الدنيا ، وكان رحمه الله يتقلب في نعيم يتعاظم كل وصف، ويتحدى كل إحاطة.. إنّ دخله السنوي من راتبه ومخصصاته، ونتاج الأرض التي ورثها من أبيه يجاوز أربعين ألف دينار [1].. وإنه ليتحرك مسافراً من الشام إلى المدينة، فينتظم موكبه خمسين جملاً تحمل متاعه.. فرأى أنه لم يكن لهم سلطة شرعية عليها ليعطوه إياها وأنها من أملاك الدولة ... وأحصى أملاكه كلها فردها في بيت المال، ثم استدعى زوجه فاطمة الزاهدة العابدة بنت الخليفة وأخت الخلفاء.

بنتُ الخليفة والخليفة جــدها *** أختُ الخلائف والخليفة زوجــها

قال لها: إني بعتُ نفسي من الله، فإن كنت تريدين العيش معي فحي هلا، وإلا فالحقي بأهلك، هذه الحُلِي التي تلبسينها تعلمين من أين أتى لك بها أبوك؟ رديها إلى بيت المال، والله لا أجتمع مع هذه الحلي في دار أبدًا بعد اليوم. قالت الزاهدة الراغبة فيما عند الله: ((بل أردها والحياة حياتك يا عمر، وللآخرة خير وأبقي.))

([1]) حوالي 1360000 دولار.

ثم توجه إلى أقاربه الأقربين فأخذ ما بأيديهم، وسمى أموالهم مظالم ، وهي الأموال الهائلة.. والثروات العظيمة التي تملكها أسرته، وإخوته وحاشيته، وعزم على ردها إلى أصحابها إن عرف أصحابها، أو إلى الخزانة العامة، وأن ينفذ على الجميع قانون " من أين لك هذا" ؟

وتوجه إلى أمراء البيت الأموي فجمعهم وحاول أن يعظهم ويخوفهم الله، وبين لهم أن ليس لهم من الحق في أموال الخزانة العامة أكثر مما للأعرابي في صحرائه، والراعي في جبله .. وأن ما بأيديهم من أموال جمعوها من حرام ليس لهم إنما هو لله، وأرادهم على ردها فأبوا، ودعاهم مرة أخرى إلى مأدبة واستعمل أسلوباً آخر من اللين فلم يستجيبوا ، فلما عجزت معهم أساليب اللين عمد إلى الشدة وأصدر تعميما: أنه كل من كانت له مظلمة أو عدا عليه أحد من هؤلاء فليتقدم بدعواه ، وألف لذلك محكمة خاصة ، وبدأ يجردهم من هذه الثروات التي أخذوها بغير وجهها ويردها إلى أصحابها أو إلى بيت المال.

ووسطوا له عمة له كان يوقرها بنو أمية لسنها وشرفها ، فكلمته.. فدعا بجمر ودينار ، فألقى الدينار في الجمر حتى إذا احمرّ أخذه بشيء وقرّبه إلى جلده ، وقال : يا عمة أما تشفقين على ابن أخيك أن يكوى بهذا يوم القيامة ؟ قالت : إذن لا تدعهم يسبونهم ، قال : ومن يسبهم؟! إنما يطالبونهم بحقوقهم ، فخرجت إليهم قائلة : هذا ذنبكم لماذا زوجتم أباه بنت عمر بن الخطاب ، اصبروا فإنه لا يجور.

* وأرسلوا له ابنه عبد الملك فقال لابنه: قل لهم: ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

فخضعوا جميعاً وردوا ما كان في أيديهم من الأموال ... واكتفوا برواتبهم الكثيرة التي كانوا يأخذونها من الخزانة ، ولكن عمر لم يكتف وأمر بقطع هذه الرواتب وإعطائهم عطاء أمثالهم ، وأمرهم بالعمل كما يعمل الناس ، وعم الأمن وهدأت الثورات ، وشملت السعادة الناس ، واختفت مظاهر البذخ الفاحش ، ومظاهر الفقر المدقع ، وصارت هذه البلاد التي تمتد من فرنسا إلى الصين تعيش بالحب والإخلاص والود.

خرج إلى الأمة ليردها إلى الله الواحد القهار فكان فعله يصدق قوله، وكان لا يشغله عن الله شاغل، لَيْلُه قيام وبكاء وخشوع وتضرع، ونهاره عدل وإنصاف ودعوة وبذل وعطاء، ملأ الأرض عدلا بعد أن كادت تُملأ جورًا:

بعد كل صلاة ينادي منادٍ: أين الفقراء ؟ أين المحتاجون؟ فيقدم لهم الطعام والأموال. فلا والله ما تنساه البطون الجائعة ولا الأكباد الظامئة، ما دام في الأرض بطنٌ جائع أو كَبِدٌ ظمآن.

اللهم أخرج من أصلاب هذه الأمة رجالاً كعمر يردون الأمة إليك ردًا جميلاً، اللهم اجعل ولايتنا فيمن خافك واتقاك يا رب العالمين، اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، ودنيانا التي فيها معاشنا، وآخرتنا التي إليها معادنا إنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

(الجمعة 28/ 1/ 1428هـ = 16/ 2/ 2007م)